دراسات الأدب المعاصر، السنة الثامنة، ربيع ۱۳۹۵، العدد التاسع والعشرون: صص ۱۰۹- ۱۳۳

المكان وأثره على الشخصيات فى ثلاثية محمد ديب(الدار الكبيرة والحريق نموذجا)

محمدرضا احمدی*

خلیل پروینی**

تاريخ الوصول: ۹۴/۵/۱۸

تاريخ القبول: ۹۴/۹/۱۳

الملخّص

إن المكان والشخصية يعتبران من الدعائم الرئيسية للرواية. فالمكان هو الإطار الذى تقع فيه الأحداث وينقسم إلى النوعين المفتوح والمغلق. أما الشخصية فإنها عنصر فعال فى تطور مسيرة الرواية وتنقسم إلى المسطحة والمدورة. وهناک علاقات بين الشخصية والمكان فى العمل الروائى فالقارئ يستطيع أن يتعرف على الشخصية الحكائية وعلى الظروف الإجتماعية السائدة وعلى الأحوال النفسية من خلال الأمكنة التى تعيش فيها. وهذا البحث يعتمد على المنهج الوصفى - التحليلى لإظهار قدرة الروائى محمد ديب فى وصف الأمكنة وإقامة العلاقة بينها وبين الشخوص لكى يفهم الرواية بشكل أعمق. فتوصل البحث إلى أن الأمكنة فى الروايتين تتبادر نوعاً من التقابل إلى ذهن القارئ حيث يواجه فيها نوعين من المكان أى المكان المغلق والمكان المفتوح.

الكلمات الدليلية: محمد ديب، الدار الكبيرة، الحريق، الشخصية، المكان.

* طالب الدكتورا بجامعة تربيت مدرس، طهران، ايران. javadahmadi1368@yahoo.com

** عضو هيئة التدريس بجامعة تربيت مدرس، طهران، ايران(أستاذ مشارک). adnant@ut.av.ir

المقدمة

اهتم دارسو الرواية خاصة الرواية العربية بدراسة عنصر المكان فی مجال الدراسات الروائية ما أدّى إلى خلق مجموعة من المصطلحات الخاصة بدراسة هذا العنصر مثل المكان الروائی، والفضاء، والفضاء الجغرافی، والفضاء الدلالی، والفضاء النصی(لحمدانی، ١٩٩١: ٧٥-٧٦). وبما أن هذا البحث تدرس الأمكنة الروائية ففضّلنا توظيف مفردة المكان دون المصطلحات الأخرى؛ حيث أن باحثی الرواية يفضلون مصطلح الفضاء الروائی بدلا من مصطلح المكان الروائی؛ إذ أنهم رأوا فی الأول شمولية أوسع لكونه يشمل المكان(المصدر نفسه: ٦٢). زد على ذلک أن من الباحثين من يرى أن هناک مفارقات بين الحيز والمكان؛ حيث أن الفضاء مرتبط بالمكان المطلق بما يشمله الفراغ أيضا، فالمكان يرتبط بمساحة جغرافية محددة، فی حين أن الحيز محدد بشكل أكثر دقة ليكون مصغرا عن المكان بحيث يعنی الحجم أو الإطار الخارجی لشیء أو لمكان ما(مرتاض، ١٩٩٨م: ١٤٢).

على كل فالمكان الروائی فيختلف عن الحقيقی منه؛ حيث أن الأول بناء لغوی يصنعه ويخلقه قوة خيال الروائی فالمكان فی الرواية «ليس هو المكان الطبيعی أو الموضوعی وإنما هو مكان يخلقه المؤلف فی النص الروائی عن طريق الكلمات ويجعل منه شيئاً خياليا»(عثمان، ١٩٨٦: ٩٤). فالمكان فی النص الروائی مكان متخيل قد تكون سماته متشابهة مع المكان الحقيقی ولكنه ليس طابق النعل بالنعل وإنه نتاج مجموعة من الأساليب اللغوية المختلفة والمختلقة فی النص.

وتعد الشخصية أيضا ركنا أساسا من أركان الرواية، وعنصرا فاعلا وفعالا الذی يساهم فی صنع الحدث؛ حيث يؤثر فيه ويتأثر به ودونها يفقد كل من الزمان والمكان معناهما وقيمتهما. وعلى الرغم من أن الزمان والمكان مستقلان عن الإنسان فإنهما بلا قيمة حقيقية إذا كانا خارجين وعيه. إذن الشخوص فی الرواية هم مدار المعانی ومحور الأفكار والآراء العامة(غنيمی هلال، ١٩٧٣: ٥٦٤). فالشخصية لا يكون لها «معنی فی بنية العمل الروائی إلا إذا كانت لها وظيفة تمارسها فی علاقتها مع الشخصيات الأخرى والحوادث وأحيانا مع الأمكنة»(العيد، ١٩٩٠: ٢٢). فهذان العنصران أعنی المكان والشخصية يرتبطان دائما بعضهما ببعض وهنالک بينهما علاقة تلازم وتنام فی بعض الأحايين؛ حيث

لا تعيش شخصية بلا مكان وليس للمكان معنى بلا شخوص، فهذا الأمر قد يجعل من المهم تبيين كيفية الترابط بين العنصرين ودورهما المحورى والمفصلى فى فهم الرواية. وبما أن المكان لا يعيش منفصلا عن باقى عناصر الرواية بل يدخل فى علاقة تفاعل مع المكونات الحكائية للسرد كالشخصيات والزمان والأحداث، فإذا لم تتم قرائته ضمن هذه العلاقات والصلات سيصعب فهمه فى السرد الروائى. والقارئ إذا درس المكان فى ارتباطه بالعناصر الأخرى كالشخصيات ستظهر مدى وعيه به وقدرته على فهمه وبالتالى سيكون قادرا على تلقى النص الروائى وفهمه.

فتم اختيار ثلاثية محمد ديب للبحث؛ إذ يكون المكان والشخصيات فى ثلاثيته العنصرين البارزين ولهما علاقات متشابكة فيما بينهما. فهذا البحث يحاول دراسة كيفية رسم الأمكنة وخلق الشخصيات وإقامة أواصر العلاقة بين العنصرين.

فيحاول البحث الإجابة عن الأسئلة التالية:

١- كيف قام محمد ديب برسم المكان الروائى والشخصيات فى روايتيه «الدار الكبيرة» و«الحريق» وساقها فى أحضان الأحداث؟

٢- ما هى العلاقة بين المكان والشخصية فى الرواية؟

خلفية البحث

لقد اهتم الباحثون بدراسة المكان والشخصية فى الرواية ومن المشهود مقالات وكتب ورسائل وأطاريح تناولت هذا الموضوع فنذكر بعضا منها على سبيل المثال ولا الحصر:

- رسالة معنونة بـ«دلالة المكان فى رواية عابر سرير لأحلام مستغانمى» التى كتبت على يد *سعدية بن يحيى*. فالباحثة تناولت مفهوم المكان وأهميته فى العمل الروائى وتوصلت إلى أن دلالة المكان فى الرواية لم تعبر عن الواقع الجزائرى قط وإنّما إشارة للواقع العربى. فالبناء الجيد للمكان ساهم فى خدمة مكونات الرواية، خصوصا الشخصية بفعل دلالة المكان وتفاعل الشخصية معه. فالشخصية ذابت فى المكان والمكان فيها وتلاشت حدوده.

- رسالة معنونة بـ«دلالة المكان فى ثلاثية نجيب محفوظ؛ دراسة تطبيقية» اعداد الطالبة *دحمانى سعاد*. إن الباحثة قد ركزت فى رسالتها على النوعين من المكان المغلق

والمفتوح. أما عن الشخصية وعلاقتها بالمكان فخلصت إلى أن للشخصية معه علاقة تـأثير وتأثر، فالشخصية فاعلة فی المكان كما أن المكان فاعل فيها، فكلاهما يلعـب دور الفاعـل والمفعول. ويتم من خلال تبادل هذه الأدوار تحقيق فضاء حی يعكس رؤية فنية خاصة.

- مقال تحت عنوان «دلالة المكان فی رواية موسم الهجـرة إلـی الشـمال» الـذی قـام *محمد خاقانی اصفهانی* و*مريم اكبری موسی أبادی* بدارسة المكـان ودلالتـه. وقـد توصـل الباحثان إلى أن المكان فـی عـالم الروايـة يصـبح دالا يـدل علـی مـدلول ايـدئولوجی أو سايكولوجی يدل على أحاسيس الشخصية وأفكارها.

- مقال معنون بـ«تقابل مكان و كاركردهای معنايی أن در رمـان موسـم الهجـرة إلـی الشمال». فالباحثون قد درسوا ظاهرة التقابل المكانی، والتوظيف الدلالی، وكيفيـة وصـفه، وتبيين علاقة الأول بالشخوص فـی الروايـة. واسـتنتجوا أن كاتـب الروايـة اسـتطاعت أن يستغل من التقابل المكانی لإبراز التقابل فی العالم الغربی والشرقی ألذی أسسـت الروايـة عليها ولإثارة مشاعر القارئ. كمـا أن ملامـح البطـل الغامضـة لا تنجلـی إلا عبـر المكـان وتبيينه.

وهذه التی مر ذكرها قد تمت دارسة المكان وأحيانا الشخصية فيها، أما بالنسبة لدراسة هذه المقومات الروائية فی روايات محمد ديب فلم يكد يحصل على شیء يـذكر إلا مقـال معنون بـ«استعارة الثورة/ الحريق» الذی كتب على يد *أمينه رشيد*. فالباحثة تقوم بدراسـة العناصر الجمالية من الاستعارة والكناية فی رواية «الحريق» فلم تتنـاول عنصـری المكـان والشخصية فيهـا. وبمـا أن المكـان والشخصـية يعـدان السـمة الطاغيـة فيهـا ويتفـاعلان وينسجمان بعضهما البعض فدراسة هذين العنصرين قد يرشد القارئ حتـی تتكـون لديـه قراءة صائبة من الرواية.

أهمية المكان والشخصية فی الروايات الواقعية

إن الروائی محمد ديب يعتبر أحد كتاب الجزائريين المنتمين إلـی المدرسـة الواقعيـة فی كتابة الرواية وثلاثيته تندرج ضمن هذه المجموعة. فيـتم وصـف المكـان فـی الروايـة الواقعية بالتفاصيل خلافا للروايات غير الواقعية. فالزمان والمكان فی هذا النوع مـن الروايـة يتناسبان مع المضمون والأجواء السائدة عليها والشخصيات التی تلعب دورها فيهـا. ولابـد

من أن يكون المكان والزمان عنصرين ناشطين فی هذه الروايات. ووصف المشاهد والحيز الذی يحدث فيه الأحداث تظهر خصائص الشخصيات الذهنية والمعنوية(ريمون كنان، ۱۳۸۷: ۹۳). كما أن الشخصيات فی الروايات الواقعية ما إن تخلق فی ذاكرة الروائی تلعب دورا مستقلا أمام خالقه وتوضع فی مسار تفرض عليها الجدلية الداخلية فی حياتها الإجتماعية والنفسية. فالشخصية فی مثل هذه الروايات له خصائص خاصة واصفة الشريحة التی تنتمی إليها. فالروائی حينما يصور الشخصية يحاول جمع الخصائص المتعلقة بالشريحة الإجتماعية التی عاشت فيها إلی جانب الاهتمام بخصائصه الفردية. فهذه الشخصيات فی الروايات ليست ثابتة إنما تحدث فيها تغييرات جذرية(دقيقيان، ۱۳۷۱: ۲۷).

فينبغی أن يصدق قارئ الروايات الواقعية أن الشخصيات فی مثل هذه الروايات تعيش فی أمكنة حقيقية وأزمنة محددة حتی يتيسر له أن يری نفسه معها. لذلک تناول المكان ورسم ملامح الشخصيات يعدان من أهم الخصائص لهذه الروايات.

المضمون السردی

وصور محمد ديب فی ثلاثيته مرحلة من تاريخ الجزائر بين سنتی ۱۹۳۹-۱۹۴۲. تجری أحداث الرواية الأولی المعنونة بـ"الدار الكبيرة" فی بيت كبير يسمی "دار سبيطار". تقع هذه الدار فی مدينة "تلمسان" وتضم عددا كبيرا من العائلات الجزائرية البائسة فی أحضانها؛ تلک التی تعانی من الفقر المدقع ويكون بطل الرواية صبيا اسمه عمر. فإنه يعيش مع أمه عينی وأختيه؛ تلک التی لابد لها أن تعيل هؤلاء الأولاد بعد أن مات زوجها. وهناک فی الرواية شخصية تلعب دور القائد الذی لاذ بالفرار من البيت هاربا نحو تركيا فالشرطة تبحث عنه دوما. وإنه يظهر غير مرة فی الرواية وله حضور كثيف فی الجزء الثانی واسمه حميد سراج. وقد أثر هذا المناضل فی شخصية الصبی/ البطل وفی تفتح وعيه. إن السكان الآخرين الذين يعيشون فی هذه الدار ليسوا بأحسن حال من أسرة عمر.

والرواية الثانية تبدأ مع نشوب الحرب العالمية الثانية، إذا كانت الحرب وآثارها لم تظهر بجلاء فی الجزء الأول من الرواية، فإنا سنری طلائع تأثيرها فی رواية الحريق وذلک فی

عام الثورة. وفى الرواية يستمر الجوع والفقر رغم ان حدته انخفضت إلى حد ما. ويستهل الروائى هذا الجزء بالحديث عن الجوع فيُسأل عمر: أأنت جائع؟ فيجيب البطل بالإيجاب(ديب، ١٩٨٥: ١٢٢). والروائى فى هذا القسم من ثلاثيته يصور الوضع السيء للفلاحين الموجودين فى قرية تدعى "بنى بوبلان"، الذين يقدمون أراضيهم للمستعمر عاملين بأجور زهيدة جداً.

وإذا كان محمد ديب قد يسرد فى رواية الدار الكبيرة واقع أبناء المدينة خلال حياة أسرة فى دار واسعة من دور مدينة تلمسان فإنه ينقلنا فى الرواية الثانية إلى الريف ليظهر وضعه وحياة الناس فيه ويطلعنا على جانب بائس آخر من حياة الجزائر. فتظهر إلى جانب عمر شخصيات محورية جديدة كـ"كومندار" الذى يشبه بالقادة العسكريين إلى جانب حميد سراج.

ويجتمع الفلاحون فى القرية ويبدو أن بداية وعى جديد يتفتح فى أذهانهم وهو وعيهم لواقعهم والبؤس الذى فيه يعيشون. كما أنهم قد قرروا أن يقوموا بإضراب ويشكل هذا الإضراب محور الرواية(المصدر نفسه: ١٣٨). وحميد سراج المناضل الثائر يخطب فى اجتماعات الناس ليشد أزر الفلاحين ويفتح أعينهم على طرق الخلاص وسبل التحرر. لقد كان هذا الإضراب إرهاصاً بالثورة ونتيجة لبؤس طويل. فأضرمت النار فى أكواخ الفلاحين الذين يعملون فى المزارع الفرنسية انتقاماً وبطشاً فأحرقتها وشردت أصحابها إلا أن هذا الحريق لم يكن إلا بداية لنار أكبر منه هى نار الثورة الجزائرية.

الأمكنة فى الروايتين

إن الأحداث تجرى فى المكان والشخصية تقوم بدورها فى أحضانه وتتفاعل مع الزمان. فتختلف أحداث الرواية مع أحداث الحياة و«الفرق بين أحداث الرواية وأحداث الحياة ليس فى أنَّنا نستطيع التثبت من صحة هذه بينما لا نستطيع الوصول إلى تلك إلا من خلال النص الذى يظهرها فحسب، بل هى إلى ذلك(أى أحداث الرواية) أكثر تشويقا من الأحداث الحقيقية»(بوتور، ١٩٨٢: ٨). فالروائى عندما يصف المكان فى الرواية يبتغى بذلك نقل مشاعره الصادقة إلى المتلقى أو القارئ فلذلك يلجأ إلى وصفه مماثلا لمظهره الخارجى الذى يقترب من الحقيقة. كما أنه يقوم بتصوير لوحات فنية وصور طوبوغرافية

للمكان الروائى الذى يشبه بالحقيقى موظفا الوصف كأداة لتصوير المكان وشرح تفاصيله وبذلک «يدخل العالم الخارجى بتفاصيله الصغيرة فى عالم الرواية التخييلى ويشعر القارئ أنه يعيش فى عالم الواقع لا عالم الخيال، ويخلق انطباعا بالحقيقة أو تأثيرا مباشرا بالواقع»(قاسم دراز، ١٩٨٤: ٨٢).

إن الروائى بعد أن يرسم إطار الأمكنة للقارئ يلجأ إلى رسم الشخصية التى تنمو وتنشط فى أحضانها لكى يصور العلاقة التى تربط المكان بالشخصية وصلتها وتفاعلها به. فاختلاف الصفات وتنويعها من مكان إلى آخر قد يظهر الفروق الموجودة بين مكان إلى آخر؛ تلک التى قد تكون إجتماعية، ونفسية وإيدئولوجية. فهذه الصفات تقود القارئ إلى تبيين وجهات النظر لدى شخصيات الرواية كما أنها تساعده على الكشف عن خفاياها النفسانية والمشاكل النفسية التى تعانى منها الشخصية أحيانا. كما أنها تجعل القارئ أن يسبر أغوار النفس البشرية كاشفا خباياها وتحملها على استبيان المكانة الإجتماعية التى تنتمى إليها الشخصية.

وجدير بالذكر أن هناک علاقة تأثر وتأثير بين المكان والشخصية حيث أنه يعد من العناصر الأساس فى تكوين هيكلة هذه الشخصية كما أنه يشكل المكان من خلال اختراقها له. فإذا آمنا بانفصال المكان عن تأثير الإنسان عليه فخطئنا. كما أن الروائى يحاول إلى جعل المكان منسجما مع خصائص الشخصيات التى تقوم بدورها فيه ويظهر المكان كخزان للحالات الشعورية والذهنية لدى الشخصيات ويؤثر على التحولات والتغييرات التى قد تحدث عليها. فتتجلى اهمية المكان فى «تعميق الجانب الدلالى للشخصية الروائية، وذلک يجعله مقدما - فى بنية النص- على أنه دال على الانسان قبل أن يكون دالا على جغرافية محددة أو تدل على تقنية تبرز حدوث الواقائع و الاحداث»(الاشلم، ٢٠٠٦: ٤٥٩).

زد على ذلک أن المكان له دور فعال فى النص الروائى حيث يتحول أحيانا من خلفية تقع فيها أحداث الرواية إلى عنصر تشكيلى كما له أهمية كثيرة فى تأطير المادة الحكائية وتنظيم الأحداث ومجمل القول أن المكان يشكل المسار الذى يسلكه تجاه السرد (بحراوى، ١٩٩٠: ٢٩ و زنيبر، ٢٠٠٦م: ١٣). فله تقسيمات عديدة إلا أن من بينها يهمنا نوعان وهما المغلق والمفتوح. والقصد بالمكان المفتوح ذاک الذى فيه انفتاح ويصدق

أحيانا على الشخصيات التى تقوم بدورها فيه لأنه من الممكن أن يكون المكان منفتحا لشخصية ما، مغلقا بالنسبة لشخصية أخرى والمقياس هنا هو مدى تأثيرها وتأثرها وحريتها وتقييدها. وكأمثلة من النص يمكن أن ندرج القرية بإعتبارها من الأمكنة المفتوحة أما كنموذج للأمكنة المغلقة يمكن أن تدرج دار سبيطار باعتبارها أمكنة شديدة الخصوصية(بن يحى، ٢٠٠٨م: ١٧). فالمكان من حيث الانغلاق والانفتاح لا يبقى دائما منغلقا من الناحية الذهنية فـ«يبدو وكأنه يتجه إلى مختلف الأماكن دون صعوبة ويتحرک نحو أزمنة أخرى وعلى مختلف مستويات الحلم والذاكرة»(باشلار، ٢٠٠٠: ٧٢).

فمن الملاحظ فى الروايتين أن الروائى لم يذكر الأمكنة المنوعة؛ حيث وجد القارئ نفسه أمام مكانين وهما دار سبيطار بوصفه مكانا مغلقا وقرية بنى بوبلان بوصفه مكانا مفتوحا فهذان المكانان يعتبران الساحتين الأساسييتن اللتين تجرى الأحداث فيهما فلذلک ليس فى الرواية الأمكنة الفرعية.

دار سبيطار(المكان المغلق)

كما هو معروف أن البيت يعتبر من الأماكن المغلقة والأليفة معا. فإنه لدى جميع أبناء البشر يرمز إلى مكان أمن يلجأ إليه أبنائه؛ إذ يشبه بحضن الام لأبنائها. والبيت يعبر عن وجهة نظر ساكنيه ومعتقداتهم فى كثير من الأحايين؛ حيث إذا وُصف البيت فى الحقيقة وصف ساكنوه. فالبيوت تكون معبرة عن أصحابها فهى تفعل فعل الجو فى نفوس الآخرين، الذين يتوجب عليهم أن يعيشوا فيها(ولک، ١٩٨٧: ٢٣١). فالبيت فى رواية الدار الكبيرة هو أحد البيوت القديمة التى تقع فى مدينة تلمسان. واختار محمد ديب اسم دار سبيطار لهذه الدار الكبيرة التى تضم عددا كثيرة من العائلات الجزائرية. إنها «تشبه أن تكون بلدة رحابها واسعة جدا تجعل من المتعذر على المرء أن يقول ما عدد السكان الذى تؤويهم على وجه الدقة... إنها بيت كبير عتيق يطل على الشارع الضيق وذو رواق مظلم(ديب، ١٩٨٥: ٤٨). فالضيق والظلمة يعدان من أولى الخصائص التى تتمتع بها الدار اللتين قد ترمزان إلى الخنق السياسى والجهل الذى خيم على المجتمع الجزائرى فى فترة التخلف وما قبل الثورة.

ويكون "عمر" بطل هذه الدار التى رغم سعتها لن تعتبر مكانا أليفا له ولسكانها. والظلمة والصمت لا تفارقان هذه الدار. فالرواية تبدأ بهذه الجملة: «هات قليلا مما تأكل»(المصدر نفسه: ١٣). إنما الجوع قد قتل فى الأطفال أحلامهم التى لم تتعد الحصول على قطعة خبز. إنها الإنسانية المهانة من الاستعمار. فإذا الشخصيات فى الدار تتحول إلى كائنات بلا كيان، حلمها وشبحها هو الخبز وكيفية الحصول عليه. وبما أنهم لا يحصلون عليه فهم يتحايلون عليه. والروائى يشبه بمصور أخذ بكاميراته مصورا الفقر، والجوع، ومحاولات سد الرمق أحسن تصوير؛ حيث أن القارئ حينما بدأ بقراءة الرواية شعر بالجوع، والفقر، والظلمة بلحمه وشحمه. فأزمة الخبز أو الجوع تعد الأزمة الحقيقية التى يعيشها السكان قاطبة.

محمد ديب لجأ إلى توظيف ثنائية النور والظلمة فى الدار لرسم تخلف الشعب الجزائرى ويأسهم وانعدام بصيص الأمل لديهم. كما أنه عمد إلى توظيف الظلمة لإبراز التخلف الذى كان سائدا على مجتمعه وقد يتحدث قليلا عن الضوء الذى يدخل أحيانا فى هذه الدار بواسطة حضور أشخاص مثل حميد *سراج*. مهما يكن من أمر فقدرة الروائى تبرز فى مزجه بين المتناقضات؛ حيث أنها تتأرجح بين الصمت/ الصوت والظلام/ الحر(الناتج من ضوء الشمس) بشكل غير مباشر. فـ«الحر الشديد الذى يصاحبه الجوع دائما يؤرق لياليهم. غير أن الجوع أشد رهبة من الحر. إنه ماثل لهم دائما»(المصدر نفسه: ٧٧).

أما العنصر الآخر فى الدار الكبيرة فيكون البؤس الذى ألقى بنفسه على الشعب بأكمله. فالبؤس يجعل البعض مقاوما وصامدا كشخصية "عينى" أم عمر وقد يسبب فى تشاؤم الناس ك "لا لا خيرة" الشخصية الثالثة فى الدار. كما أنه يسبب فى أن يختار الشخصيات عزلة لعجزهم على احتمال هذه المصائب التى ألمت بالدار. وعمر أحسن نموذج وممثل لهذه الشخصية؛ حيث لم يستطع أن يبقى فى الدار فغادرها بحثا عن الحرية وعن فهم معنى الانسانية على حسب تعبيره.

فالدار ليست الاّ مكانا مغلقا يشاهد فيه الانسداد فى الأفق والانغلاق ولا يوجد فيه أى ملامح للانفتاح وقد استمر الوضع على هذا النمط إلى درجة أثّر هذا الأمر على الشخصيات الرئيسة فى الرواية الاولى؛ لأن المكان فى هذه الرواية تتحول إلى كائن حى إذا لم نقل أنه يخلق الشخصيات ولكنه ذو أثر كبير عليها خاصة فى تكوين ملامحهم. كما أنها لم

تستطع أن تعيش بعيداً عن العالم المحيط بها، والزمن الذى يصور فيه محمد ديب هذه الدار/ الجزائر فى فترة إرهاص بالثورة؛ إذ كان الوضع فاسدا مهددا بالانفجار.

فاعتمادا على ما ذكر فيمكن أن نعتبر الدار التى قام الروائى برسمها ووصفها صورة لبقية الديار المشابهة لها أو صورة للجزائر كلها بواقعها وتطلعاتها، إن هذه الدار أشبه شىء بسجن. وكانت الجزائر كلها سجناً كبيراً يعيش فيه الناس ويضطربون ويعانون الحياة القاسية الأليمة دون أن يستطيعوا أن يحركوا بساكن لتغيير هذا الواقع البائس المستطير.

قرية بنى بوبلان(المكان المفتوح)

القرية بشكل عام تندرج ضمن الأماكن المفتوحة. والروائى محمد ديب إختار هذا المكان لأحداث رواية "الحريق". إلا أنه قد يبرز سؤال نفسه وها هو: لماذا اختار ديب القرية كمكان تلاحظ فيها الارهاصات الأولى للتخلص من الفقر/ الجهل والبدء بالثورة/ الوعى؟ فالروائى يجيب عن السؤال قائلا: إن «تلمسان مدينة قديمة: فالبيوت فيها هرمة يرجع عهدها إلى مئات السنين ولكن الناس أيضا هرمون فى تلمسان. والوجوه فى بنى بوبلان بسيطة كل البساطة مألوفة كل الألفة... حذار أن تسألهم أن يحنوا ظهورهم صاغرين... إن سكان بنى بوبلان أناس حليمون... ولكنى استطيع أن أقول على وجه التقريب أن كل ما يصنع الجزائر قائم فيه»(المصدر نفسه: ۱۳۸). إذا الناس فى تلمسان هرمون نفسيا إذ أتعبهم تكاليف الحياة فى المدينة ولم يكن هناك حبل مودة تربط بينهم إلا أن سكان بنى بوبلان أناس يتعمتون بالبساطة وهناك مودة فيما بينهم ولا تُحنى ظهورهم قسرا؛ لأن الطبيعة القاسية والصعبة فى الريف والحياة الريفية تجعل سكانها صامدين فى سبيل نحقيق تطلعاتهم. فهذان العنصران إلى جانب الحلم والصبر يساعدان على إشعال نار الثورة فيها وقد تكفى لها.

ففى الرواية نشهد نوعا من رواية الريف(Roman Rustique)؛ تلك التى جعلت الروائيين بأن يقنعوا أن عالم الريف عالم يمكن اتخاذه تجربة كيانية وتحويل موضوع إلى قضية كما يمكن أن يشكل منه رمزا وأسطورة. فهذه الرواية تعد نتاجا طبيعا لشعور الروائى العميق بالإنتماء إلى الأرض وإلى القرية الوادعة التى ظلت تحافظ على نقائها وعلى بساطتها(بتقة، ۲۰۱۰: ۲۲). فالانتماء الأكثر إلى الأرض/ الوطن يتجلى لدى القرويين

تجلياً بارزا قياسا لسكان المدن؛ لأن الشخصيات فى هذه القرية يشاهدون مباشرا استلاب أراضيهم على أيدى الفرنسيين واغتصاب وطنهم وظلمهم إياهم إلا أن سكان المدينة يشعرون بشكل غير مباشر ظلم المستعمرين إياهم. وفى الحقيقة الصراع من أجل الأرض/ الوطن بين الفلاحين والمستعمرين يكون محور رواية الحريق.

فأحداث الرواية تجرى فى صيف عام ١٩٣٩ فبطل الرواية التقى مع عدد من الاشخاص حتى طرأت تغييرات فى شخصيته وآرائه شيئاً فشيئا وتنضج إلى حد كبير. إن الرواية تبدأ بوصف مكان يسمى بـ"بيت النور". كأن الروائى أراد يلفت انتباهنا إلى التغيير فى الجو المظلم الذى كان سائدا فى الرواية السابقة وفى دار سبيطار.

والمزارعون يكونون الشريحة الرئيسية فى هذه القرية والمرء «يدرک من الشعور القوى أنه اجتاز حدودا ونفذ إلى عزلة رغم أن المسافة التى تفصلها عن تلمسان لا تزيد على ثلاثة كيلومترات. ويبلغ أصحابها من بساطة العيش درجة تحسبهم معها آتين من قارة منسية»(ديب، ١٩٨٥: ١١٨). فالقرية بإضفاء هذه الخصائص عليها تصبح خيالية فى هذه الرواية رغم أنها موجودة فى الجزائر إلا أن الروائى وظفت اسم هذه القرية قط وأضفى عليها صفات جديدة كأنه خلق قرية تختلف عما توجد فى تلمسان.

إن الروائى يبدأ بوصف هذه القرية الخلابة موضحا أن المرء يعيش فيها ساعات هادئة. حيث أنه ليس هناک إلا أربعة بيوت. فـ "ليست بنى بوبلان قرية حتى ولا كفرا صغيرا... وبنو بوبلان تجرى الأيام الجميلة فيها هادئة والضياء يتأرجح فيها مضطردا»(المصدر نفسه: ١٢٣). فالهدوء والضياء لا يفارقان هذه القرية وهذه الصفات تعدمها دار سبيطار.

الأمر الآخر الذى يلفت إنتباه القارئ فى القرية ليس شيئا إلا قضية الخبز التى تغيرت بالنسبة لدار سبيطار؛ حيث أن الخبز تم توزيعه بين أبناء بنى بوبلان؛ ما كان حلما بالنسبة لأبناء دار سبيطار.كما أن الشمس فى القرية تختلف عن الشمس فى دار سبيطار. إنها فى القرية متلألأة حيث أن ألقها غرق مدخل المغارة وتسرى شعورا بالراحة والرخاء فى جسم الإنسان(المصدر نفسه: ١٢٩).

فالمكان الذى رسم الروائى فى الرواية الثانية يختلف تماماً عما نجده فى الرواية الأولى؛ حيث أن فيه حيوية ونشاط ومزيد من الحياة قياساً للدار التى لا يرى القارئ فيها إلا الجمود واليأس والقلق الناتجة من أجوائها المغلقة كأنها تسمر الشخصيات فى مكانها ولا

يسمح لها باحداث أدنى تغيير فى سبيل حياتها. أما القرية فيها نور يتلألأ يهتدى به الفلاحون فى إزالة العتمات والظلمات المحيطة بها.

الشخصيات فى الروايتين

إن الشخصيّة تأخذ مساحة واسعة ومكانة سامية فى الأبحاث والدراسات بوصفها عنصراً مركزياً فى العمل القصصى والمسرحى. إن الشخصيات تعتبر الدعائم الرئيسة لبناء القصة والرواية إذ لا نجد قصة دون الشخصية. ويرى *فوستر* أن الشخصية القصصية ليست مماثلة لما هو فى الواقع فحسب، ولكنها ينبغى أن تكون مطابقة له. من ثم يخلص إلى تقسيم الشخصيّة إلى نوعين: المسطّحة والمغلقة. ويقصد بالشخصيّة المسطّحة ما تمثل الأنموذج الذى لا يكاد يتغيّر ولا تتبدل سماته طوال النص، فيظل محافظًا على ثباته دون أن يتأثر بالمتغيرات، وفى الوقت نفسه ليس له أثر يذكر مهما تغيّرت الظروف المحيطة به. أما الشخصية المغلقة فهى مركّبة من مجموعة من السمات التى تبدو غيرمنسجمة، ولا تستقر هذه الشخصية على حال واحدة، ويصعب التنبؤ بمصيرها ولها تأثير على الأحداث والشخصيات الأخرى بسبب تطورها الدائم(فوستر، ١٩٩٤: ٦١). فيسمى عبد الملك مرتاض الشخصية المسطحة بالشخصية الثابتة والشخصية المدورة بالشخصية النامية. إنه يضيف وصفا آخر إلى الشخصية المدورة وهو ليس إلا تأثرا يتأثر به الشخصية من الشخصيات الأخرى والأشياء الأخرى(مرتاض، ١٩٩٨: ٨٩).

أما الشخصيات فى الرواية الأولى تندرج ضمن الشخصيات المسطحة التى لا تتغير طوال الرواية كـ"عينى" و"لالا خيرة" إلا أن شخصيات الرواية الثانية من الشخصيات المغلقة كـ حميد سراج، "كومندار" و"عمر" الذى تغير فى الرواية الثانية وأبلغ نفسه إلى مستوى المغلقة للتغييرات التى تطرأ فى شخصيته.

الشخصيات المسطحة وعلاقتها بالمكان

عينى

إن عينى - أم عمر- تكون الشخصية الثانية فى رواية دار سبيطار إلى جانب إبنها. وإنها أصبحت أرملة فى سن مبكر فاضطرت إلى القيام بأعمال شاقة وتتحمل عبء تكاليف

الحياة. وتعد أنموذجا من المرأة الجزائرية الأصيلة، وإنها وإن مات زوجها ترى أنه بذل جهودا واضحة لأن يجعل الناس يتفكرون وكان يحاول أن يشرحه للآخرين وكانت النتيجة أن ألقى فى غياهب السجن كم مرة ومرة... إنها ترى أن المرء لا يدخل السجن إلا إذا قال كلاما صادقا(ديب، ١٩٨٥: ٤٢). إنها تبدو فى كثير الأحايين مرأة متسلطة تربى أولادها ولو لجأت إلى الضرب. فتسلخ «جلد أولادها من شدة الضرب وكانت مقبلة على عملها هذا بهمة جبارة لا تلين... إنها كانت تبذل جهودا مضنية لتربية اولادها وعودتهم الاحترام إلى الآخرين»(المصدر نفسه: ٦٤).

وهذه المرأة التى تحملت آلاماً كثيرة قد ترمز إلى الوطن الذى يكون غاضبا من أبنائه؛ لأنهم لم يبذلوا جهدا فى سبيل استرداد شبرا من ترابه من أيدى المستعمرين؛ حيث أن اغتصاب الأراضى على يد الفرنسيين يكون أوضح فى رواية الحريق. فربما غضب الأم من إبنها عمر يعود إلى أنها تشعر أن كرامتها قد سلبت على يديهم الذين فرضوا الفقر والحرمان والظلمة على سكان الجزائر ولم يعد بمقدور ابنها الوحيد أن يحرک أدنى ساكن فى هذا الشأن.

فشخصية عينى فى هذه الرواية تكون شخصية ثابتة لا نرى فيها أى تغيير ملحوظ. وهذا يعود إلى الاختناق السائد، والظلام الداكن، وغياب الحركة فى دار سبيطار. وعينى لا تتمكن من القيام بأى تغيير فى نفسها وذلک فى ظل الانغلاق الذى رأيناه فى الدار. فلذلک لم ولن تتغير شخصيتها فلا ترتقى إلى مستوى الشخصيات المدورة التى بامكانها احداث تغيير جذرى فى الحياة عامة وفى الرواية بشكل خاص.

لا لا خيرة

يبدو أن ديب قد اختلق هذا الاسم لشخصية ذات جانبين كما يرمز بدلالة خفية إليهما. فالجانب الأول يتخلص فى "لا لا"، ومعنى هذا أنه يكون شخصا يردد النفى دائما ويعانى من الكبت واليأس المتزايد. فإنها تمثل شريحة من الجتمع التى لم تقم بأى عمل وإنما تكتفى بالشكوى والتذمر فهذا الأمر يكون بمثابة ردة فعل تجاه الوضع القائم فى الدار؛ ذاک الذى لا يتغير ولا يسمح الفرنسيون أن يتغير شيئ فيها. إن هذه الشخصية تشكو دائما من ضنک العيش ولكنها لا تقوم بأى عمل لتغيير المصير. فعندما يبتغى عمر

الذهاب إلى المدرسة لكى يتعلم الحرية وكيفية المواجهة مع الاستعمار ويحذو حذو أبيه فإن "لا لا" تمنعه، إذ أنها لا ترى مستقبلا لعمر وإنما تناهض استمرار الدراسة ومتابعته فى المدرسة وتقول: «دعک من هذه الأفكار. إن عليک أن تعمل كالحمار إذا أردت أن تعيش فحسب. وهل الذين لا تذهبون إلى المدرسة فى يوم من الأيام تموتون جوعا؟ التعليم ليس لأمثالک يا دودة!... إخرس يابن السكير.. ما أنت إلا غبار، إلا قذارة تلتصق بنعال كرام الناس... إما أن تصبح رجلا إما أن تسحق سحقا... لا تأمل فى إن تصبح سعيدا... لا تأمل أن تعيش حياة مطمئنة. لا تأمل..»(المصدر نفسه: ٥٧).

فهذه الشخصية لا تختلف لها أن تعيش فى أى مجتمع. فلذلک ترضى بأن تعيش كالحيوان فهمها الوحيد هو ارضاء الرغبات الحيوانية وسد الرمق. فمن العجيب أنه ينادى عمر بـ "ابن السكير" إلا أن أبيه كان من أحد منورى العقول الذين كانوا يقودون المجتمع ويرشدون سواد الناس إلى سواء السبيل كأنها ترى التغيير أو الأفكار التى تنوى التغيير فى المجتمع نوعا من السكران. وهذه الشخصية تردد اليأس وترسم دائما أفقا منسددا لمن حولها.

أما الجانب الايجابى يعود إلى "خيرة" وهو يبرز فى معاونتها أسرة عينى. «كانت لالا رغم حبها للتوفير والإقتصاد فى كل شىء واحدة من الناس الذين يأكلون كل يوم... وكانت تساعد عينى وأطفالها على احتمال لحظات العوز فتمدهم بين الفينة والفينة بقطع من الخبز الاسود»(المصدر نفسه: ٦١). كذلک يبرز الجانبان المتناقضان فى هذه الشخصية التى نرى ملامح الثبات وانعدام التغيير فى شخصيتها. وبذلک تندرج ضمن الشخصيات المسطحة أو الثابتة فى الدار الكبيرة؛ تلک التى لا تفسح المجال أمامها للتطور و النمو ولا تسمح للآخرين أن يتغيروا أو يغيروا مصيرهم. فالقارئ عندما يواجه بتصريحات لا لا يتنبه إلى أنها تكون متشائمة ولا يلاحظ فيها أى تغيير فى شخصيتها.

الشخصيات المدورة وعلاقتها بالمكان

هناک ثلاث شخصيات تبرز فيها ملامح التدوير والنمو، حيث أنها تعتبر من الشخصيات المدورة أو النامية. فهذه الشخصيات تكون: عمر، وحميد سراج، وكومندار.

عمر

إن عمر يكون بطل الروايتين. فإنه طفل صغير يعيش بمرافقة أمه وأخواته فى دار سبيطار. وقد فقَد أباه وهو فى صغر السن. وهذا الأمر قد خلف أثرا سلبيا كبيرا على شخصيته. إنه يتردد فى رواية الدار الكبيرة بين المدرسة والبيت وليس لديه المام بالقضايا الجتماعية والسياسية. والخبز عنده «كل شىء ويجب الحصول عليه... فإن أحلامه لا تذهب إلى أبعد من هذا»(المصدر نفسه: ١٦). إنه ذاق نكهة الفقر المرة ولكنه يسأل من نفسه لماذا يعيش سكان الدار فى الفقر المدقع ويسأل السؤال عن النساء والأناس الأخرين ولكنهم يجهلون الإجابة. فكان رد البعض أن هذا الأمر من قسيمتهم ويردد الآخر أن الله يعلم سبب هذا الشقاء قط ولكن البطل لم يقتنع بمثل هذه التفسيرات فإنه يعرف تماما أنها لا توضح شيئا. فالكبار يتحاشون عن الرد عليه فلذک يشكک دائما ويسأل لماذا لا يعرفون الجواب الصائب؟ هل إنهم يريدون أن يختبئوا السوال فيردد دائما هذا الكلام: «لماذا لا يتمردون؟ لماذا لا يثورون؟»(المصدر نفسه: ٧۴). فإنه يرى أن سكان دار سبيطار/ الشعب الجزائرى يظلم عليهم من قبل الفرنسيين ولكنهم لم يحركوا بأى ساكن لتغيير مجريات حياتهم. فالأمر كان غير مفهوم لديه.

فالصبى واجه قضايا غريبة طيلة حياته؛ حيث يواجه بأقوال المعلم حينما يردد أقوالا كانت مخالفة لما سجل فى ذاكرته. فالمعلم يسأل عن معنى كلمة الوطن. فأجاب تلميذ أن فرنسا هى أمنا الوطن! والتلميذ أعاد سنته وسمع الإجابة فى الفصل السابق من معلمه. أما عمر فأصاب بنوع من الازدواجية فى معلوماته وفى ما يسمع فى الصف. «لقد اكتشف الكذبة. فرنسا ليست أمه سواء أ كان هى الوطن أم لم تكن هى الوطن»(المصدر نفسه: ١٩). لذلک بدأت النواة الأولى لحب الوطن تتكون فى ضميره وذلک بعد أن اكتشف هذا الزيف. إن عمر فى دار سبيطار لا تتغير مجرى حياته ويندرج بنوع ما ضمن الشخصيات المسطحة حيث أن المكان المغلق لم يسمح له أن تنضج شخصيته وأثّر عليه سلبيا فكأنه يشبه بسجن لا يمكن للمسجون أن يقوم بأى فعل. كما أن الذين كانوا يعيشون معه فى الدار الكبيرة لا يفهمون التغيير ولا يسمحون له أن يتغير وإنما يعيشون فى تخفلهم. إن الشخصيات التى كان يعامل معها كانت أمه، والمعلم - الذى باع هويته بثمن بخس إزاء التدريس فى المدرسة- ولا لا خيرة، وزملائه فى الصف، وأخواته فى البيت. أما الشىء

المهم بالنسبة لشخصية البطل فى هذه الرواية فإنه يكون الذاكرة الجماعية لدى الجزائريين؛ بعبارة أخرى إنه هو السائل عن الوضع المعيشى السائد عند الشعب الجزائرى؛ الشعب الذى قد دحس حقوقه الاساسية كحقوق المواطنة والعيش.

وفى الحقيقة يكون عمر بمثابة "الأنا" المفقودة لدى كل من أبناء الجزائر؛ الأنا التى تهددها العزلة، والانفراد، والظلم، والنسيان. فلذلک إنه كباحث عن الحقيقة يبدأ بالرحلة والسفر إلى قرية بنى بوبلان حيث يجد أجوبة لكثير من أسئلته؛ المكان الذى بدأت شخصية عمر تتغير شيئا فشيئا فيه قياسا لدار سبيطار. فلأسباب التى مر ذكرها لا يحدث أى تغيير فى حياته فى هذه الدار. إن البطل يبدأ رحلته إلى بنى بوبلان لقضاء عطلته الصيفية على حد قول الكاتب ولكنه فى الحقيقة لم يبدأ هذا السفر إلا بعد أن وصل إلى طريق مسدود فى الحصول على أجوبة مقنعة لأسئلته وللكشف عن الحقيقة التى تكون مترسخة فى وجوده. إن بنى بوبلان- هذا المكان النائى عن العالم- والذى يعيش فى العزلة قد يرمز إلى الجزائر فى مرحلة بدأ شعبها ينهض من الغفلة وأخذ يحرک وينشط نتيجة النور و الانفتاح اللذين أحدثا فى تلک القرية.

فالبطل فى متابعة مساره للكشف عن الحقيقة يلتقى بكومندار فى بنى بوبلان. وهذا الالتقاء كان أهم حدث ليجعل شخصيته تنضج مرحلة بعد الأخرى. فإنه عرف فى بنى بوبلان «أين يقع ذلک الخط الذى بعده لا يجوع الانسان والذى قبله يشعر بحرقة فى دمه وبشدة تفارقه»(المصدر نفسه: ١٣٢). إنه عرف فيها أن الانسان إذا كان حرا طليقا فى حياته ولم يكن هناک مستعمر يدحس حقه فلن يشعر بالجوع أبدا. كما أنه ذاق حلاوة الحياة المليئة بالسكون والدعة فى هذه القرية. إن لعمر خصائص ذاتية تجعله تتميز عن أترابه؛ إذ يتمتع بذهن يقظ وروح لاتعرف الخنوع والانكسار على غرار أبيه وتتمتع بعصبية وحمية إزاء وطنه ولغته وذلک كان جليا فى دار سبيطار؛ إذ لم يقبل أن تكون فرنسا وطنه وتحير ودهش عندما تكلم معلمه بالفرنسية مع أن العربية كانت لغته الأم.

فإنه بعد أن أمضى ردها من الزمن فى بنى بوبلان وبعد التغييرات الجذرية التى طرأت على شخصيته آمن بأن كل انسان يستطيع بالذكاء، والحذق، والتحمس أن يبلغ إلى المكانة التى يطمح إليها ويحرص عليها. و إنه لم يكد يهتم بالجوع بعد هذه المرحلة وإنما يردد فى نفسه: «حتى الجوع لن يدفعنى إلى استلاب ما ليس لى»(المصدر نفسه: ٢٥۴).

وهنا تحول عمر إلى شخصية ثورية لن ينثنيه شيء عن غايته حتى شبح الجوع التى كان يطارده فى دار سبيطار. وكان يشعر أن هناك شيئا أخطر شأنا وأكثر قيمة. فإنه لـم يكـن إلا الحرية والصمود أمام العدو المستعمر الذى. فيبذل جل همته علـى المقاومـة، والكفـاح مع العدو الفرنسى وهداية الشعب الجزائرى إلى سبيل احقاق حقـه وجعلهـم فـى مسـيرة صحيحة. وفى الوقت نفسه كان مقتنعا بأنه ليس بمقدوره أن يبلغ إلى هذه الغاية وهو بين ذويه ولكنه كان يرفض مع ذلک أن يبلـغ إلـى الغايـة مـن دونهم(المصـدر نفسـه: ٢٥٧). فبذلک يتم الكشف عن أبعاد شخصية عمر. فرحلته الصـيفية إلـى بنـى بـوبلان لـيس إلا رحلة استكشاف. كما حاول عمر برحلته وتعرفه إلى شخصية كومندار واللقـاء مـع حميـد سراج قليلا، حاول أن يظهر للجزائريين هويتهم ويذكرهم بماضيهم العريـق حينمـا كـانوا يعيشون أحرارا ولم يواجهوا بشبح الجوع ولا الظلم ولا الظلام ولا التخلف.

ويشعر البطل حاليا أنه تدخل فيه روح كبيرة خافقـة وهـى روح بلـده بأسـره. وكانـت طفولته تفارقه وما هو الآن إلا ثورة وصيحة بين بقية الثـورات والصيحات(المصـدر نفسـه: ٢٥٧- ٢٥٨). وطفولته ليست مرحلة إلا وأنه كان فى نـوم الغفلـة ولكـن الآن صـار رجـلا ثوريا وتحول إلى صيحة جزائرية بين جميع الصيحات. فبذلک تغيرت شخصية البطل فـى بنى بوبلان وذلک بعد تأثره بشخصتين اللتين كانتا ذات أثر ايجابى على الشعب الجزائـرى بشكل عام وعلى الفلاحين بشكل خاص وبعـد أن تغيـرت أجـواء الروايـة والمكـان تبـدل شخصية عمر فمِن هنا تبين مدى تفاعل شخصيته مع المكانين دار سـبيطار وقريـة بنـى بوبلان. فالمكان قد ذاب شخصية البطل وانصهرت فى بوتقته حيث تحول من صبى جاهل بالأمور إلى ثورى لم يتوقفه الإستعمار ولم يرو عطشه شيء إلا تحرير الوطن. مع أن عمـر قد أمضى ثلاثة أشهر فى القرية ولكن القارئ يواجه بشخصية ناضجة كأنه رجل طاعن فى السن. فبذلک عبر من الشخصية المسطحة فى الدار ووصل إلـى الشخصـية المـدورة فـى القرية.

كومندار

إن الشخصية الثانية التى تلعب دورا محوريا فـى روايـة الحريـق تكـون قائـدا عسـكريا طاعنا فى السن اسمه كومندار؛ ذاک الشخص المؤثر على شخصية بطل الرواية. وكومنـدار

كان يعيش فی أعالی جبال بنی بوبلان فی وحدة وعزلة عن سواد الناس. وكان قائدا فی الحرب القديمة وبترت ساقه فيها. هذا الاسم اختير له من حياة عسكرية طويلة كلفته بتر ساقيه. فالناس نسوا اسمه الحقيقی. والاسم يلائم مع الوظيفة التی وكل اليها الروائی فی الرواية. والفلاحون يحيونه تحية عسكرية. يقول الروائی عن خصائصه: «لقد كان كومندار يشبه بشجرة من حديد حين كان عمر يقترب منه. كان الشيخ يحدثه طويلا عن العالم. إنه لا يحمل لهذا العالم إلا الصداقة والاحترام... إنه لا ينفک يساعد المخلوقات التی تملأ الارض... فسرعان ما انعقدت أواصر الصداقة بين عمر وهذا الرجل الذی ينصت لضوضاء الأرض ويفهما. وكان الصبی يترک النساء والرجال ليلحق بالحياة الكبری التی يحياها العالم»(المصدر نفسه: ١٢٣). هذا الشيخ الذی يحمل معه تجاربا قيمة يترک أثرا ايجابيا علی شخصية عمر. فإنه ينصحه دائما ويشجعه علی أن يرفع من مستوی وعيه. كما يطلب منه أن تفتح إذنيه وتحفظ ما يقول له ويسجله فی ذاكرته. إن لكومندار خطة مستقبلية بالنسبة للبطل؛ إذ أنه يری فی عمر قوة تتميزه عن أطفال مثله. فإن هذا التخطيط يفيد البطل إذا اشتد ساعده ونضج عقله فی المستقبل حين يصير رجلا(المصدر نفسه: ١٢٤). وقد لا يفهم عمر ما يقوله كومندار ولكنه يحاول حفظ أقواله ونصائحه. وهذا الشيخ العجوز المحنک يقوم بدور قائد عسكری من جانب وينصح الناس كرجل دينی و زعيم روحی من جانب آخر. هذه الشخصية المدورة أو النامية تبرز ملامحها للقارئ شيئا فشيئا.

إنه تتمتع بشخصية محتجة ثورية لا تعرف الخذلان؛ إذ أن الفرنسيين المحتلين قرية بنی بوبلان سنوا قانونا زائفا وانعقدوا محاكما زائفة وكومندار دائما يحتج أمامهم ويشكو من غفلة الفلاحين ويدعوهم إلی الصمود أمامهم ويری أن هذه المحاكم وهذا القانون تعدان سببين رئيسين فی شقاء أبناء الجزائر.

أما بعد هذا الإحتجاج فالناس يجتمعون حوله والشيخ العجوز كان يقوم بنصحهم. إنهم «يسمعون كلام كومندار ويفهمونه. لكن طاقتهم الرهيبة تحملهم علی الصمت. إنهم يعيشون حول كومندار والأمل يستحثهم من كل جانب»(المصدر نفسه: ١٦٩). نعم بما أن كومندار يحمل الأمل للناس يتلائم شخصيته مع الأمل والنور السائدين علی فضاء رواية حريق؛ لأنه أضفی سمة الحيوية والبعث بين الفلاحين والشخصيات الأخری كبطل الرواية. كما أن عنوان رواية الحريق تحمل فی طياته ملامح الثورة وأجيج غضب الشعب الجزائری.

صرح كومندار حول اعتقال عدد من الفلاحين على يد المستعمرين الفرنسيين مخاطبا البطل: «ولكننا جميعا مجرمون يا ولدى، فهم يعاقبون بعضنا بالرصاص وبعضنا الآخر بالضرب أو السجن... يعاقبون بعضنا بالكلام وبعضنا بالجوع... يطردون ذوينا من النور. يطردونهم من الارض التى يزرعونها. ونحن لا ندرک ذلک. حتى إذا ألقوا أمام وجوهنا واحدا من موتانا فهمنا»(المصدر نفسه: ٢٣٨). فالمستعمرون يخمدون نار الاحتجاج أينما وجدوها. لذلک يقومون بأصناف التعذيب ويلقون بعض الفلاحين الأبرياء إلى السجن ويقتلون بعضهم. فإنه يرى أنه من أجل تحسين الوضع ولكى يعيش الناس عيشة طيبة يجب أن يحطمون الاستبداد أو يدفنه ويقول: «إذا لم نقاوم أنواع الاستبداد هذه فلن يكون ثمة داع إلى الشعور بالخجل والعار أمام هؤلاء الموتى»(المصدر نفسه: ٢٣٨).

إن كومندار يرى هذا الظلم الذى يفرضه الفرنسيون على الفلاحين، إلا أنه لم يستسلم أمامهم بل يستفيد من خبراته فى الحرب ويعلم الصمود إلى الفلاحين؛ ذاک الذى قد علمته الحرب القديمة. إنه يتيقن أن الوحدة، والتلاحم، والتضامن تكون الدرع الرئيس أمام هجمات الفرنسيين. فيدعو الناس «ليكونوا صفا واحدا تشد بعضهم إلى بعض سلسلة واحدة»(المصدر نفسه: ٢٣٩).

فهذا الشخص المحنک كان له أثر بالغ فى يقظة الفلاحين/ الشعب الجزائرى فى مرحلة النهضة كما ترک أثرا فى شخصية البطل. فكومندار قد رفع علم الثورة فى أرض بنى بوبلان وبما أنه كان مؤثرا فى مجرى حياة الناس وكان قد غير الوضع السائد فى تلک القرية يمكن أن نعتبر شخصيته مدورا. وفور تغيير المكان والأجواء ظهرت شخصيات ليست غاية لها فى الحياة إلا التغيير والثورة أمام الاستعمار.

حميد سراج

أما الشخصية الأخيرة التى نبتغى دراستها فتكون حميد سراج. وإنه يلعب دور المثقفين ومنورى العقول فى الرواية. كما هو معروف إن كل ثورة بحاجة إلى المنظرين، والمثقفين والثورة الجزائرية ليست استثناء من هذه القاعدة. وحميد سراج هو الذى يكتنف شخصيته نوع من الغموض يكون الشخصية الثالثة فى بنى بوبلان ولو أن الراوى أشار إليه فى دار سبيطار موجزا. وإنه كان بجانب الفقراء دائما إلا أن كونه سراجا منيرا

فيعود إلى أفكاره المنـورة والتنويريـة؛ حيـث يحمـل آراء تحرريـة إزاء العـدو المسـتعمر. والروائى يتحدث عن حميد سراج فى الرواية الأولى ويقول أنه لم يكـن يعـيش ولـم يبـق فيها وإنما غادرها متجها إلى تركيا. وإنه كان قد اختفى فى تركيا و«هو فى الخامسة عشـر من عمره... غاب بضع سنين دون أن يرسل شيئا من أنبائه لأبويـه... وعـادت أسـرته مـن تركيا دون أن تعرف شيئا عن المصير الذى آل إليه»(المصدر نفسـه: ۴۳). فالشـيء الـذى يلفت الإنتباه أنه ما إن غادر دار سبيطار حتى تغيرت أفكاره وتنبه إلـى ظلـم الفرنسـيين على الشعب الجزائرى. وإنه يتمتع بخصائص تجعله أن ينفذ فى الناس نفاذا قويـا. فصـوته وعيناه الصافيتان يعدان من هذه الخصائص. فعندما يتكلم، كـان صـوته «يثبـت الكلمـات التى يلوح أن نظرته الغريبة تقرؤها فى الأفق البعيد»(المصدر نفسه: ۴۴) وفى مكـان غيـر دار سبيطار. إذن إنه ذو قوة مؤثرة فى النفوس كالقوة التى كان يتمتع بها كومنـدار. فهـذا أحد الملامح التى يجعلها فى إطـار الشخصـيات المـدورة والمتغيـرة حيـث يسـتطيع أن يحدث تغييرات جذرية فى الأشخاص حوله.

وحميد كان يجلس فى بنى بوبلان إلـى جانـب الفلاحـين مناقشـين موضـوع توحيـد جهودهم وسكان المدن بكل ديموقراطية وعلى قدم المساواة. فإنه يتمتـع بالديموقراطيـة؛ حيث يريه القارئ يحترم الفلاحين وآرائهـم ويحتـرمهم ويعمـل لتوحيـدهم وفـألقى فـى السجن للمشاركة فى تنظيم الفلاحين والعمال والتحضير لإضرابهم. إنه من كبار المثقفين والناس جميعا يعرفون ذلک، كان ينصر الضعيف دائما، ويعين الناس بما يسدى إليهم من نصائح، بث فى الرجال شجاعة الحياة .كان دائما إلى جانب الفقراء، وتحدى السـلطات مـن أجل أن يساعد أقرانه(المصدر نفسه: ۲۵۱). إنه تعلم القـراءة بنفسـه فـى زمـن لـم يكـن التعليم ساريا فى الجزائر كثيرا. إذا التقى المرء معـه أدرک أنـه رجـل رأى كثيـرا وعـاش كثيرا. كان فى هيئته هدوء وحزم. وكان يتكلم بصوت خافت جميل الوقع فى الاذن بطىء بعض البطء. إن حياته تبدو لمـن يقاربـه مـلأى بالاسرار(المصـدر نفسـه: ۴۳). فشخصـية حميد فى بنى بوبلان تظهر أكثر فأكثر للقارئ. حيث يقوم بإلقـاء الكلمـات الثوريـة بـين الفلاحين المضطهدين.

هذه الشخصية تمتلـک قـوة مجهولـة حيـث يحترمهـا النـاس احترامـا كبيـرا. إلا أن المستعمرين ومرتزقتهم يعتبرونه المجرم الأول لأنه هو «الـذى ألقـى فـى رؤوسـهم هـذه

الامور(فكرة الثورة نتيجة قلة الاجور) إنهم أناس سذج أبرياء(المصدر نفسه: ١٤٩). إنه قد أهدى الفلاحين السذج الذين لو لم يكن هناك أشخاص كحميد سراج لن ينتبهوا إلى اضطهادهم. فيرى حميد أن اتحاد الشعوب سيمزق الاضطهاد فى أنحاء الجزائر. إن التضامن مع الذين يعملون، ويتألمون ويناضلون واجب(المصدر نفسه: ١٩٢).

إن الروائى قد أراد أن يقوم بتكبير صورة حميد كقائد سياسى مناضل قائد للفلاحين أو الشعب الجزائرى الذى كان يعيش فى مرحلة النهوض أمام الإستعمار فالبطل يتطلع إلى تنظيم شعبه أمام هذا العدو اللدود. فمن الطبيعى أن يحصل القائد على تجربة اكتسبها من خلال الرحلة إلى خارج البلد(تركيا) حيث تتفتح عيناه هناك وذلك بعد أن اطلع على ما يحدث فى أنحاء العالم وتيقن بأن شعبه الذى يعد جزء منه مازال يعيش فى الجهل ولكنه لم ينثن ولم تضعف همته وإنما يزود نفسه بالشجاعة والجرأة والخبرة واحترام الأخرين ومشورة الناس. فحميد لم يبتغ فى حياته غاية سوى الحب لوطنه ولأهله وانقاذ الشعب الجزائرى من نير الاستعباد ما فرضه العدو الغاصب عليهم.

فبذلک تبين أن خصائص حميد سراج قد يجعل القارى من عدم التمكن من التنبؤ بمصيرته. نعم إنه كان من دعاة التغيير وكان حضوره فى رواية الحريق متلائما مع الجو الثورى السائد عليها ما تقتضيه البيئة الحرة الواسعة ظاهريا والفسيح سياسيا وعقائديا. وهذه الأجواء الرحبة والمنفتحة تترک أثرا إيجابيا على القائد وعلى الشعب برمته وتؤدى إلى التغيير فى مصير الشعب الجزائرى. وأخيرا اجتمع الفلاحون وثاروا ضد العدو الفرنسى بعد أن أرشدوا على يد كومندار وحميد سراج وبذلک نهض أبناء الجزائر من نوم الغفلة شيئا فشيئا فكان هذا الأمر بمثابة بادرة من بوادر الثورة الجزائرية التى اندلعت فى ١ نوفمبر ١٩٥٤ ضد الإستعمار الفرنسى الذى احتلّ البلاد منذ سنة ١٨٣٠، ودامت ٧ سنوات ونصف من الكفاح المسلح والعمل السياسى، وانتهت بإعلان استقلال الجزائر يوم ٥ جولية ١٩٦٢ بعد أن سقط فيها أكثر من مليون ونصف مليون قتيل جزائرى.

نتيجة البحث

بعد أن درسنا الروايتين لتبيين تلاؤم المكان مع الشخصيات التى تلعب دورها فيها خلصنا كلامنا فى هذه النتائج:

إن الروائی قد رسم فی الـروايتين صـورة حقيقيـة مـن حيـاة الشـعب الجزائـری فـی مرحلتين قبل النهوض والنهوض أمام الإستعمار الفرنسی الذی فـرض نفسـه علـيهم منـذ مدة طويلة. فالروايتان تكونان بمثابة إدانة حقيقية للاستعمار الغربی، ودعـوة شـعبه بغيـة الاستيقاظ من نوم الغفلة، ورفضا للظلم وإيمانا بالانسان وقدرته على التغيير فی حياته.

إن الأمكنة فی الروايتين تتبادر نوعا من التقابل إلی ذهن القـارئ حيـث يواجـه فيهـا بنوعين من المكان أعنی الدار بوصفها مكانا مغلقا وقرية بنی بوبلان كمكان مفتوح. مع أن ديب لم يرسم أمكنة منوعة فی روايته إلا أنه قام بوصف تفاصـيل منهـا حيـث لـم يشـعر القارئ أنه أمام مكان تخييلی وإنما يجد نفسـه أمـام المكـان الحقيقـی. فالمكـان فيهمـا يرمزان إلی الجزائر برمتها ولكن فی مراحل مختلفة. فـ"دار سـبيطار" يعـود إلـی الـذهن تلك الصورة الواضحة من هذا البلد حينما كان يعيش شعبه تحت نير الإستعباد الفرنسـی. كما أن قرية بنی بوبلان ترمز إلی الجزائر حينما كان فی مرحلة النهوض؛ عندما طفق هذا الشعور يبرز لـدی الشـعب الجزائـری فبـدأت أعيـنهم تتفـتح علـی حقـوقهم المهضـومة والمسلوبة شيئا فشيئا.

إن المكان فی الروايتين ليس مسرحا للأحداث ومجالا لحركة الشخصـيات قـط وإنمـا يعد وسيلة لإظهار أفكار الروائی عن التخلف الذی يعانی منه الشعب الجزائری فـی مرحلـة كان يفرض المستعمر اسـتعماره علـيهم وكـانوا فـی سـباتهم. فالمكـان يتجـاوز الحـدود المعتادة ويتحول إلی فضاء رمزی يرشد القارئ إلی ملامح المجتمع الجزائری فی فترة مـا قبل الإستعمار. فالمكان فی الدار بوصفها مغلقـة يعيـق تقـدم الشخصـيات ويمنعهـا مـن التطور وذلک مرده أنه مغلقا ومنسدا فيعرقل أمام تطورها، وتغييرها، واكتمالهـا، ونضـجها، وبروز الوعی لديها لما يجری عليه من الظلم. فالقرية التی توصف بمكان مفتوح فإنها تفتح الطرق أمام الشخصيات فی سبيل عودتها إلی الرشد وتمهد لها الظروف لاشعال نار الثـورة أمام المستعمرين فالشخصيات تنمو فی أحضان هذا المكان المفتوح ويجرأ علـی احـداث تغييرات جذرية فی حياتها والتخلص من الجهل، والتخلف، والاضـطهاد المفـروض عليهـا. فالمكان يثير حوافز الشخصيات ويوظف فی سبيل تقدم الأمور فی الرواية. وله علاقة وثيقة مع الشخوص لاينفصل بعضهما من البعض حيث نری أنه يسير إلی جانب الشخصية حتی نهاية الرواية. كما أنه يسدل الستار عن الأفكار التی تحملها الشخصيات مـا نـری مشـاهده

فى دار سبيطار؛ حيث أن الشخصيات لها أفكار متنزلة ودنيئة لاتعدو عن الحصول على الخبز ولا تفكر إلا بسد الرمق ورفع الحاجات المادية البسيطة. إلا أن أفكار الشخصيات فى القرية تتسع دائرته وتبلغ إلى مستوى التفكر بالمستقبل والسؤال عن الوضع الذى كان الفلاحون يعيشونه فيفكرون بالحرية والتحرير من قيود الاستغلال فبذلک يتجاوزون المستوى الدنى بالغين إلى الحاجات من الدرجة الثانية. فالمكان يؤثر على الشخصيات وتتأثر به ويتفاعلان بعضهما مع البعض طوال السرد.

إن المكان المفتوح يمثل جانبا من الحرية فمن السهل للشخصية أن ينتقل من خلالها بالانفتاح على العالم الخارجى كما أنه يكشف عن الجانب الذى يكمل الشخصية الروائية؛ ذاک الذى قد يكون نقيضا لما كان عليه فى بداية الرواية. فالبطل عمر يكون فى الرواية الأولى خاصة فى المكان المغلق صبيا يقتصر فهمه على أوليات الحياة إلا أن شخصيته تتكامل إلى حد ما فى الرواية الثانية(وفى المكان المفتوح) فتتحول إلى من لديه آمال للحرية والصمود أمام العدو. فالشخصية فى المكانين لها خصائص تتغير حسب تغيير المكان.

المصادر والمراجع

الاشلم، حسن احمد علی. ۲۰۰۶م، **الشخصیة الروائیة عند خلیفة حسین مصطفی**، القاهرة: مجلس الثقافة العام.

باشلار، غاستون. ۲۰۰۰م، **جمالیات المکان**، ترجمة غالب هلسا، ط۵، بیروت: المؤسسة الوطنیة للدراسات والنشر والتوزیع.

البحراوی، حسن. ۱۹۹۰م، **بنیة الشکل الروائی؛ الفضاء، الزمن، الشخصیة**، المغرب: الدار البیضاء، المرکز الثقافی العربی.

بدری، عثمان. ۱۹۸۶م، **بناء الشخصیة الرئیسیة فی روایات نجیب محفوظ**، بیروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزیع.

بوتور، میشال. ۱۹۸۲م، **بحوث فی الروایة الجدیدة**. ترجمة فرید انطونیوس، ط۲، بیروت: منشورات عویدات.

دقیقیان، شیرین دخت. ۱۳۷۱ش، **منشأ شخصیت در ادبیات داستانی**، تهران: انتشارات نویسنده.

دیب، محمد. ۱۹۸۵م، **ثلاثیة محمد دیب؛ الدار الکبیرة، الحریق، النول**، بیروت: دار الوحدة للطباعة والنشر.

ریمون کنان، شلومیت. ۱۳۸۷م، **روایت داستانی**، ترجمه ابوالفضل حری، تهران: انتشارات نیلوفر.

عثمان، عبد الفتاح. ۱۹۸۲م، **بناء الروایة**، مصر: مکتبة الشباب.

العید، یمنی. ۱۹۹۰م، **تقنیات السرد الروائی**، بیروت: دار الفارابی.

غنیمی هلال، محمد. ۱۹۷۳م، **النقد الأدبی الحدیث**، بیروت: دار العودة.

فورستر. ۱۹۹۴م، **أرکان الروایة**، ترجمة موسی عاصی وسمر روحی الفیصل، طرابلس: جروس برس.

قاسم دراز، سیزا. ۱۹۸۴م، **بناء الروایة؛ دراسة مقارنة لثلاثیة نجیب محفوظ**، القاهرة: الهیئة المصریة العامة للکتاب.

احمدانی، حمید. ۱۹۹۱م، **بنیة النص السردی من منظور النقد الأدبی**، بیروت: المرکز الثقافی العربی للطباعة والنشر والتوزیع.

مرتاض، عبد الملک. ۱۹۹۸م، **فی نظریة الروایة؛ بحث فی تقنیات السرد**، الکویت: عالم المعرفة.

ولک، رینیه و اوستن وارین. ۱۹۸۷م، **نظریة الأدب**، ترجمة محی الدین صبحی، بیروت: المؤسسة العربیة للدراسات والنشر.

المقالات

اصغری، جواد. ۱۳۸۸ش، «**بررسی زیبایی شناختی عنصر مکان در داستان**»، مجلة ادبیات تطبیقی، رقم ۲۳، صص ۲۹- ۴۶.

بتقة، سليم. ٢٠١٠م، «**الريف فى الرواية الجزائرية دراسة تحليلية مقارنة**»، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم فى الادب الجزائرى، جامعة حاج لخضر.

بن يحى، سعدية. ٢٠٠٨م، «**دلالة المكان فى رواية عابر سرير لأحلام مستغانمى**»، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر.

رشيد، أمينة. ١٩٩٢م، «**استعارة الثورة/ الحريق**»، مجلة الفصول، العدد ٤١، صص ١٥٩-١٦٩.

زنيبر، أحمد. ٢٠٠٦م، «**المكان فى العمل الفنى**»، أمانة عمان الكبرى، العدد ١٢٩.

لوتمان، يورى. ١٩٨٦م، «**مشكلة المكان الفنى**»، ترجمة سيزا قاسم دراز، مجلة البلاغة المقارنة، القاهرة، الجامعة الأمريكية.